دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	أوهام عطيل : قراءة في مسرحية عطيل لشكسبير
المصدر:	افاق عربية
الناشر:	وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة
المؤلف الرئيسي:	ثلنباخ، هـ.
مؤلفين آخرين:	علي، صلاح سليم(مترجم)
المجلد/العدد:	مج 16, ع 1
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1991
الشهر:	رجب / كانون الثاني
الصفحات:	142 - 145
رقم MD:	227542
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink, HumanIndex
مواضيع:	النقد الأدبي، المسرحية الإنجليزية، مسرحية عطيل، شكسبير، وليم
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/227542

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

أوهام عطيل

■ هـ. ثلنباخ

قراءة في مسرحية عطيل لشكسبير

إن دراسة الانجرافات والامراض النفسية لدى بعض الشخصيات الخيالية في الاعمال الادبية العظيمة لا يمكن ان تحل محل الملاحظات السريرية من حيث الأهمية بالنسبة للمعالج. فالوهم الذي استحوذ على الملك «لير» لم يكن وهما نفسيا يمكن إخضاعه الى علم النفس السريري، ولكننا مع ذلك نذهل عندما نتابع الخصائص الفريدة لطبيعة الوهم الذي هيمن على عقل (لير) خلال المسرحية ونطبق الشئ ذاته على وصف «دستويفسكي» لبدايات ذهان غريب لايمكن اخضاعه للفحص السريري في روايته «الممسوسون»

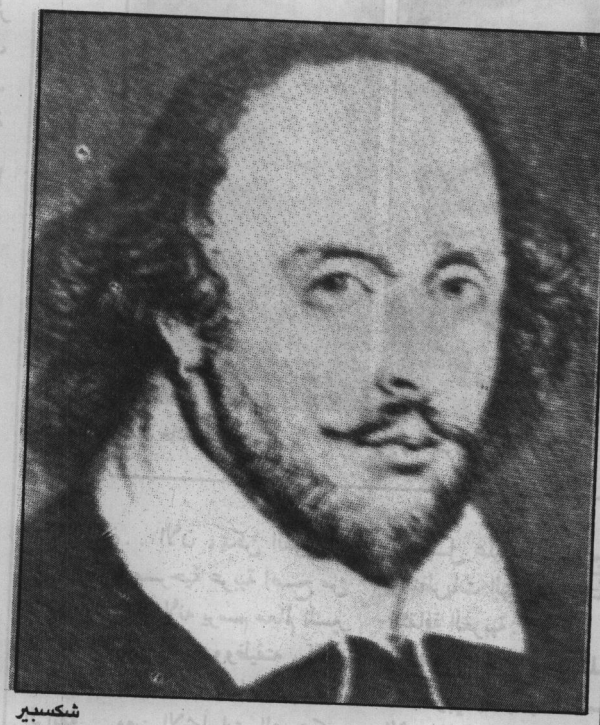

شكسبير

> ■ الغيرة خطأ عطيل المأساوي
>
> ■ تطور الغيرة ووهمها لدى عطيل بدأ بالزواج

أذ يحدثنا دوستويفسكي عن ظاهرة الأرتباك والتشوش الذهني بكل ماتعنيه هذه العبارة من معان: اي ارتباك الذات وآنفصالها عن حالتها الاعتيادية السابقة، حيث يستحوذ عليها قانون غريب وحتمي لايقع باي حال من الاحوال تحت طائلة القوانين الطبيعية، ونواميسها. انه نفس العنصر الذي يتكرر في حالة الوهم المستحوذ على شخصيات شكسبير وعند المصابين بالصرع في روايات دوستويفسكي. وفي مسرحية «الأب» لسترندبرج وفي التقلبات التي تطرحها مسرحية «البناء العظيم» لهنريك آبسن التي تمثل اعلى درجات التركيز على الوقائع السريرية ولكن ضمن اطار ادبي يصل بنا حدود الدهشة والذهول.

إن النتاج الفكري لهؤلاء الشعراء يكمن بقدرتهم على سبر وتوضيح الحتمية القاهرة لهذه الحقيقة ذلك لأنهم، وبنجاح باهر، تمكنوا من إبراز التماسك الداخلي في تطور حالة الوهم الذي يستسلم الشخص من خلاله وبالتدريج الى حالته الحتمية الأخيرة.

ومن هذه النقطة بالذات اي من الحتمية السياقية لتطور مرض التوهم نبدأ محاولتنا الرامية الى متابعة تطور حالة الوهم عند عطيل. لعلنا نتمكن من خلالها تحديد النقاط الحاسمة التي توجه حتمية تطور الوهم عند عطيل

لنتأمل قليلاً المعنى الضمني للكلمة الألمانية WAHN (التطلع القلق) هـ يجدر بالذكر ان اللغة المعتمدة المعالجة النفسية لم تغير معنى هذ الكلمة في العصر الراهن، ويقابل هذ المفردة باللغة الفرنسية delir وباللغ الانكليزية *delusion*، وقد استغني عن اللجوء الى اللاتينية او اليونان لأختيار مفردة اخرى بديلة.

وفي مراجعتنا لمعجم الأخوين غريم، الواسع نلاحظ ان كلم

■ ديستويفسكي

Wanقد مرت بمراحل عديدة من التغيرات في المعنى، اذ تعني في النصوص الألمانية القديمة (التوقع)، اي توقع الأحداث الحسنة كالأمل مثلا او (تحقق التوقعات الايجابية) كأن تنتظر المرأة مولودا. كما تعني هذه الكلمة (الثقة) حيث وردت بهذا المعنى في «تريستان » لـ جو تفريد ڤون ستراسبورغ: «Herr 'Unser trost und unser wan» (الله مصدر راحتنا ومصدر ثقتنا). ولم يحل القرن الثامن حتى اتخذت هذه المفردة معنى جديدا هو (الشك) الذي يتضمن معنى (توقع الشر) وبخاصة في نمط الشكوك الدائرة حول الخيانة العاطفية . كما وردت في سياق آخر بمعنى (المزاعم الوهمية) التي على الرغم من عدم تحققها تنطوي على احتمال تحققها بصورة او باخرى. وفي المراحل المتأخرة إتخذت الكلمة معنىً آخر هو (التصورات الوهمية) او (الكاذبة) فيما اختفت معاني الكلمة القديمة كالتوقع والأمل والشك. وفي العصر الراهن اصبح معنى (التشوش) و (انعدام السداد في الرأي) ،و (الاعتداد بالرأي الخاطئ) اي باختصار كل مايقف ضد المعرفة. يؤيد ذلك استخدام الشاعر هانز ساخس، لها بهذا المعنى: «Das Alter hat das wissen fuer den Wahn» (الكبر يعني الحكمة بدلا من الطيش).. وفي المصطلح القانوني تعني كلمة wan (التطلع القلق) بما يتضمن (كل مايقف ضد الحقيقة الأكيدة). وفي تطور آخر اصبح معنى هذه المفردة: (الرأي الراسخ الذي يثق بصحته شخص ما ثقة مطلقة وهو لايعدو ان يكون، في الحقيقة ، سوى خطأ من الناحية الموضوعية). وهكذا يتخذ معنى (Wan) دلالة معاكسة للحكم العقلاني. من هنا

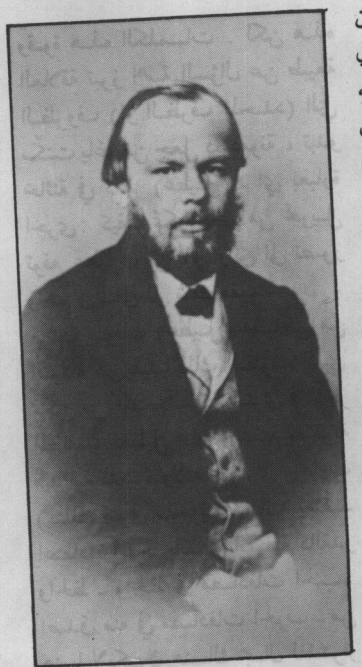

■ انتقال الحب الدنيوي الى علاقة تقوم على الاخلاص يعني انتقاله الى شكل ارقى من اشكال الحب.

تبقى امامنا خطوة واحدة ونصل الى مفهومنا عن Wan بمعنى (التطلع القلق) او (الوهم) بصفته علامة من علامات الجنون المرضي.

ونحن بدورنا ، يترتب علينا ان نتذكر هذه السلسلة من التغيرات التي طرأت على معنى هذه الكلمة عندما نتابع الطريقة التي استخدمها إياغو بدفع عطيل الى حافة الوهم.

نلاحظ في البداية تحقق المعنى الأول لكلمة wan بمعنى (التطلع الآمل) فعندما يتحقق زواج عطيل المحارب الشهير بديزدمونة الفاتنة في مسكنه بجزيرة قبرص يكون هذا الزواج تحقيقا للممكن. للمتوقع - ولكن هل يعتبر هذا الزواج تحققا لآمال عطيل النهائية؟ الجواب عن هذا السؤال: «نعم»، و«لا» - «نعم»لو كانت القصة قد انتهت بالزواج و لا، لان هذه القصة لم تبدأ في الواقع الا بعد الزواج، ولأن الزواج كان بداية لتوقع من نوع آخر يختلف تماما بطبيعته عن التوقع الأول. كما ان الظلال الساقطة حول هذا التوقع كانت ستتلاشى هي الأخرى لو كانت «عطيل» حكاية خيالية تنتهي عندما اخذ عطيل ديزدمونة الى بيته في لحظة بهيجة قائلا: «حبذا لو ترتب عليّ ان اموت الآن... وانا في ذروة السعادة » (الفصل الثاني، المشهد الأول) ولكن الم تر زواج عطيل سرا «نعم لقد تزوجتها» انضج ثمار النشوة التي نال قطافها؟ الم يعترف للدوق عن «الرذائل المخزونة في دمي»؟ فضلا عن سخط والد ديزدمونة المعلق فوق رأسه اينما اتجه؟ اذ طالما خاطبه بعبارات نابية تذكره بتحدره العنصري»: إن الجوهر الاسخم لكائن مثلك لايوحي بالبهجة بل الخوف» (الفصل الأول، المشهد الثاني). كذلك اتهامه إبنته بأنها انتهكت (بزواجها) قوانين الطبيعة: «ذلك الانتهاك الصارخ للطبيعة» (الفصل الأول ، المشهد الثالث). هذا فضلا عن الشكوك القائلة ان عطيل المغربي يمارس السحر الأسود: «حيث لاتقدر القوى الراجحة ان تطرد من روحه القوى السحرية المتجذرة في اصوله الجدودية.. تلك القوى التي تجعله دائما في موقع المهيمن الآسر» (الفصل الأول، المشهد الثالث) .ربما بسبب كل هذه المقدمات ، اصبحت النبوءة المشؤومة لوالد ديزدمونة، اكثر العناصر جدية في تحديد مصير عُطيل وديزدمونة: «انظر اليها ايها المغربي ان كانت لديك عينان ...إنها خدعت ابيها وربما ستخدعك انت كذلك» (الفصل الثاني ، المشهد الثالث) . لكن نشوة الزواج التي تمثل تحقق تطلع حيوي على درجة من الأهمية بالنسبة لعطيل لن تكسفه هذه الظلال .. ولكنها ستضيف غيوما جديدة تتكثف عبر المسار الذي سيقود عطيل الى السقوط تحت براثن الوهم. انه سرعان مايتساءل :«لماذا تزوجت اذن»؟ (الفصل الثالث، المشهد الثالث) فتهمس في أذنه الشكوك مجيبة»: «ربما لأن لوني أسود»..«وكيف تخدع الطبيعة نفسها»(الفصل الثالث ، المشهد الثالث)، فيجيب ياغو المخادع: «لقد خدعت والدها بالتزوج منك» (الفصل الثالث، المشهد الثالث).. كل ذلك يدخل في شبكة الحلم والخيال - التي يضيف (المنديل المسحور) الى خيوطها واضعة عطيل في المرحلة الأخيرة من تطور الوهم. هنا تبدأ الظلال التي كانت قصيرة عندما كان (عطيل) في ذروة قوته وسعادته، بالاستطالة والأتساع.

إن تطور الغيرة ووهم الغيرة لدى (عطيل) يبدأ بالزواج: «ليس زواجا ماارى.. انه مجرد زفاف» (الفصل

كيركجارد

أوهام عطيل

■ سقط عطيل في شرك الاغواء الذي ولّده تغير المعاني التي انطوت عليه الاحداث.

الثاني ، المشهد الثاني) . . هنا تكمن الايماءة المحددة الى النواة التي تحتوي في طلب تكويناتها اصول كل التطورات اللاحقة في المسرحية ، فعندما يكون الانسان مندفعا بنوازع النشوة الفورية لايتوفر له الوقت او المجال للغيرة. إن (دون جوان) مثلا لايمكن ان يشعر بالغيرة ، فالغيرة لاتظهر الاعندما تتحول النشوة الناجمة عن تحقيق الهدف الى إرادة غامرة بالتملك وارادة (دون جوان)، لاتتجاوز حدود تحقيق الهدف بدون اية رغبة من جانبه في الاحتفاظ بالنتائج التي حصل عليها جراء مغامرته. والغيرة الفعلية لاتنمو حقا الا عندما يبدأ الفرد بالقلق الناشئ عن احتمال فقدانه لموضوع اصبح موطن حبه وقلقه. وكلما إزدادت (الملكية) وضوحا وقربا الى الذات ، تفاقمت مشاعر الغيرة وتأججت جذوتها وصار الفرد اكثر تمسكا بحقه بصفته مالكا يريد من الهدف المحبوب (المملوك) ان يبرهن على هذا (الحق بالولاء وتجديد هذا الولاء بصفته حقا مشروعا على الدوام) - ومن هنا تنبع الغيرة.

أما الاخلاص بالقياس الى معايير الاشباع الجنسي الفوري - التي تمثل تعبيرا جماليا في العلاقة - يُعدّ امرا نافلا، لكنه ليس امرا نافلا عندما يدخل الفرد مرفأ الحياة الزوجية الأكثر استقرارا - ففي حالة الزواج يبدأ تطلع آخر يتمثل بالحفاظ على الحب وتوثيقه ومن هنا يبدأ البعد الاخلاقي، او الاخلاص. وعندما تكون العلاقة كذلك تتأكد مقولة كيركيجارد القائلة: «أن انتقال الحب الجنسي الى علاقة تقوم على الاخلاص يعني إنتقاله الى شكل ارقى من اشكال الحب. وليس ادل على تفرد شخصية ديزدمونة ، من أجابتها التي تخطت بدفئها عبارات (عُطيل) في لحظة النشوة، الحسية البالغة: «فلتكن إرادة السماء . . أن يتضاعف حبنا وتزداد سعادتنا على مر الايام!» (الفصل الثاني، المشهد الأول). ويندر حقا ان نجد في اي مكان آخر كلمات لها دفء وقوة هذه الكلمات . لكن هذه العلاقة تبرز اهمية السؤال عن طبيعة الظروف (او الظرف المحدد) التي مكّنت ياغو من جعل ديزدمونة ، تبدو خائنة في نظر (عطيل) - اي بعبارة اخرى: كيف تمكن ياغو من تحويل توقع عطيل ،من أمل واثق الى تصور واهم وبالتالي الى شك مقيم.

إن موقف (عطيل) الخاص من الولاء هو يقينا ذلك الظرف الذي تمكن من استغلاله كما سنرى في آخر المطاف، فعطيل محارب يتمتع بعبقرية ميدانية متميزة ولأنه عبقري ومحارب (يمتلك قوى سحرية) فانه يعتقد اعتقادا راسخا بالقوى الفوقية كالقدر والحظ - والحظ في مصادفات الحب، اصدق منه في مصادفات الحرب - من هنا لايكون هناك مجال للقرار والاختيار الارادي بالنسبة لهذا الطراز من الناس، اي من طراز عطيل المحارب. ومما يؤكد هذه العقائد أن احدا لايقدر ان يختار حظه وفق مشيئته لهذا يترتب عليه ان يمتطي الحظ ويوثقه برباط محكم الى جانبه بقوة السحر الاسود تماما كما يستلهم عظماء القادة النجوم . . . وتحليق الطيور والافاعي ، عطيل، والحالة هذه يثق في منظوره الاخلاقي للعالم بمعاييره وقادته وولائهم له قبل كل شئ آخر. وولاء قادته هذا ولاء طوعي ينبع من محض شعورهم بضرورة القيام بالخدمات او بالواجبات المناطة بهم. والخدمة غالبا ما تصاحبها قناعات اخلاقية (لاواعية) تجعل منها - ولاسيما عندما تكون متميزة وجيدة - تعبيرا عن الولاء بالضرورة واحد من الخصال الثابتة المميزة لشخصية المحارب - ومن هنا جاءت ثقة (عطيل) بضابطه (كاسيو) واعتماده على امانة ملازمه البحري ياغو اذ يقول فيه: «إنه أشرف الرجال» (الفصل الثالث، المشهد الثالث). ولأن ياغو جندي ورفيق سلاح، فان ولاءه بالنسبة لعطيل مسألة مضمونة بما لايقبل الشك. لكن ولاء (امرأة) ديزدمونة، لايعدو ان يكون بالنسبة للمحارب سوى مسألة استثنائية . ولابد ان يصار الى تأكيده من خلال الزواج، . . (وفي هذا الاختلاف بالذات يكمن موطن العلة الذي جعل خداع ياغو الخياني امرا ممكنا)، فياغو الذي يتمتع وحده بثقة (عطيل) يقدر ان يخلق شكوكا حول ولاء ديزدمونة ، لزوجها بدون ان تلحقه اية عقوبة من جراء ذلك . . وهو لهذا لايحتاج الا الى تذكير (عطيل) بولاء المحارب، ان يبدي لعطيل «الحب والواجب) (الفصل الثالث، المشهد الثالث). وهكذا أمسك ياغو بخيوط الشبكة من اطرافها الحيوية، وصار كلما اوشك (عطيل) على الافلات من فخ اوقعه في فخ آخر. فما دامت الظلال آنفة الذكر مصاحبة (لعطيل) على الرغم من غيابها في اوقاته السعيدة، ومادام اخلاص المرأة ياتي بالدرجة الثانية فقط بعد اخلاص المحارب (رفيق السلاح) فإن إثارة الشكوك الناشئة من الغيرة لا تستلزم اكثر من الخداع الفعال القائم على تعميق الشعور بالتعاون بدرجة الاخلاص في تصور (عطيل).

ولكي تتحول الغيرة الى شكوك، والشكوك الى غيرة حاقدة مترسخة لابد من استخدام ضرب من الخداع بالغ الاتقان . وكان ياغو ذلك المخادع البارع.

والمشهد التالي على الرغم من قصره، يُعد من اهم المشاهد في المسرحية: ياغو : : ياه: لايعجبني هذا.

عطيل: ماذا تقول؟

ياغو : لاشئ ياسيدي. . بل بالاحرى . . لاأدري ماأقول!

عطيل: ألم يكن ذاك(كاسيو مغادرا زوجتي؟

ياغو: ماذا سيدي!! كاسيو؟.. كلا لاظن انه «كاسيو» .. لايمكن ان يكون ذلك المسرع الذي حالما رآك قادما عجّل خطواته تحثه مشاعر الذنب (كاسيو).

عطيل: إني واثق انه كان (كاسيو)

في هذا المشهد ينجح ياغو وبكلمات قليلة ،في خلق حالة انفعالية محددة لدى (عطيل) فعطيل هنا، لايقدر ان يتغافل عن ملامح ياغو التشكيكية. اما العنصر الذي استخدمه ياغو في تصويره الخادع فهو الإلماحة ,hint حيث يتم بموجب هذا العنصر التنويه الى اهمية الحدث مع ترك المعنى (عن قصد) مفتوحا للتفاسير والتصورات العديدة لدى الطرف الآخر. والالماحة هنا وسيلة لاضفاء اهمية خاصة على الحدث ولكن في إطار شرور متوقعة تعمل تصورات الفرد على تجسيمها وتشعيبها في كل اتجاه: فاذا ما اسرع احدهم بمغادرة مكان ما فان إحتمالات مختلفة تترتب على هذه الحركة ذلك ان هذا الشخص قد يكون قد ارتكب جريمة ما أوانه قد زار شخصا تثير رؤيته له مشاعر عدم الارتياح لدى طرف ثالث يترقبه اثناء الزيارة وماإلى ذلك من تصورات .

إن المعنى المزدوج لحدث غامض كمغادرة كاسيو السريعة ، يصبح أكثر سذاجة عندما ينوه ياغو الى امور تقبل هي الأخرى تفاسير تشويشية وملتبسة وذلك من خلال وصفه لهذا الحدث، اذ يعمد الى تكرار بعض النواحي فيما صمت على نواح اخرى. ويفترض احتمال وجود علاقة فيما يلغي هذا الافتراض في آن واحد وبهذه الطريقة يكون ألالماحة حول مغادرة «كاسيو» للذنبة اقوى تأثيرا من التنويه الصريح باحتمال وجود علاقة غرامية بين ضباط وزوجة (عطيل). كما ساعد موض ظرف مغادرة (كاسيو) من الناحية الفيزيائية على إضافة هذا المعنى فضلا عن سلوكه في الآونة الأخيرة : فقد ادى ادمانه على الخمر الى زعزعة ثقة عطيل به مما دعاه الى تجريده من رتبته. وهكذا فان ولاء كاسيو بالمقارنة الى ولاء ياغو اصبح من الآن فصاعدا موضع شك، ذلك لأن التماسك الذي تنطوي عليه هذه الحادثة هو الذي سيوحي لعطيل بأن (كاسيو) لم يكن يتصرف.

كما ينبغي تجاه ديزدمونه اذ اصبح - مثل ديزدمونة ،و(ياغو) في الواقع، يمثل صورة وحشية لهذه الأمكانية : اذ تمكن بافعاله من خلق كيان انعكاسي منه في (عطيل) اصبح هو بالنتيجة ضروريا وملازما له - ملازمة المفتاح للقفل - فكلاهما اصبح ضروريا للاخر فيما يتعلق بتوليد الوهم ،بأدق معاني هذه العبارة، وهنا ايضا يقدم «شكسبير» برهانا آخر على قدرته الفائقة في ادراك (الضرورة) في اطار المرض النفسي. فاذا كان الشخص المصاب بالبارانويا يدرك - ولابد ان يدرك - في بيئته العناصر التي يفكر بها ويخشاها ويشك بها لوحده، فان الذات المفردة تدرك بيئتها على النحو الذي قد تشكلت عليه وليس على اي نحو آخر (زيلاسي ، ١٩٥٦).

أنه ياغو هو الذي يحرر وهم (عطيل) بصورة تدريجية ويسوقه الى حالة التضليل والرؤية المموهة في اولى مراحلها و(شكسبير) يركز في شخصية ياغو على الاسلوب المحدد للترابط البيئي - الذاتي الذي يتوجب تقديمه اذا اقتضت الحالة توليد هذا الاضطراب الذهاني الذي نطلق عليه كلمة «الوهم» في عطيل . و «ياغو» يتصرف وكأنه يعرف جيدا كل تلك الميول الشيطانية المعادية للوجود الانساني والتي توجد بصورة وخيمة في شخصية (عطيل). فالمشاهد يرى خلال (ياغو) كل ما يجري داخل (عطيل)

واخيرا ارى بان عمل شكسبير الرائع حول اوهام الغيرة اماطت للاطباء السريريين اللثام وبصورة واضحة عن مراحل حاسمة بالغة الأهمية في تطور الوهم تتجاوز المسببات والظروف التجريبية وتتعداها.

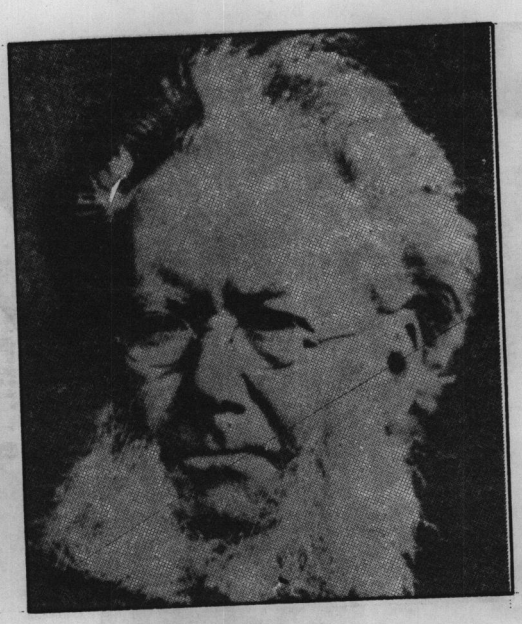

ابسن

■ تمكن ياغو من خلال الحوار المفتوح مع عطيل من انضاج حالة من الشك الرمادي الكامن وتحويله بالخداع.

ترجمة: صلاح سليم علي

المصادر

— Binswanger, L. (1957). (Schizophrenie) Neske, pfullingen.

— Freud, S. (1946) (Gesammelte Werke) Imago Publishing, London.

— Straus, E.(1960) (Psychologie der menschlichen welt) Springer, Berlin.

— Szilasi, W. (1956)(Macht und Ohnmacht des Geistes). Alber, Freiburg.

— Zutt, J. (1963). (Uber Verstehende Anthropologi In (Psychiatrie der Gegenwant). Vol. 1/2. Springer, Berlin.